**الفصل الأول

الحكم**

وقف كريم في وسط القاعة الدائرية، يديه مقيدتين خلف ظهره بحلقة معدنية باردة. الضوء الأبيض النازل من السقف لم يترك ظلاً واحداً. كان كل شيء مكشوفاً: وجهه، ثيابه الرمادية الرخيصة، والوشم الأخضر الذي يشبه ثعباناً يلتف حول كتفه الأيسر وينزل حتى منتصف صدره.

القاضي لم ينظر إليه. كان يحدق في الشاشة الشفافة أمامه، حيث تتحرك كلمات القصائد سطراً بعد سطر، مكتوبة بخط كريم نفسه.

ـ القصيدة رقم سبعة عشر ـ قال القاضي بصوتٍ آلي تقريباً ـ «إلى الذين يختنقون بهدوء». هل تعترف أنك كتبتها؟

كريم رفع رأسه.

ـ نعم.

ـ والقصيدة رقم اثنين وعشرين: «الموتى الذين يمشون»؟

ـ نعم.

ـ هل قدّمتها إلى لجنة الرقابة الثقافية قبل النشر؟

ـ لا.

صمت قصير. ثم ضغط القاضي على زر، فامتلأت القاعة بصوت كريم المسجّل وهو يقرأ إحدى القصائد في أمسية سرية قبل سبعة أشهر. الكلمات كانت تدور في الهواء كأنها أشباح:

*«نزرع الورد في علب الإسمنت

ونسمّي الاختناق استقراراً

ونسمّي الصمت وطناً»*

انقطع الصوت فجأة.

قال القاضي:

ـ وفقاً للمادة ٤٧ من قانون الانسجام الاجتماعي، يُعدّ نشر أو ترديد نصوص تُحرّض على الشك في النظام العام جريمة من الدرجة الثالثة. العقوبة: النفي الأبدي إلى المستعمرات الخارجية، مع التجميد الكامل للوعي حتى الوصول.

نظر كريم إلى الحائط خلف القاضي. كان هناك شعار الدولة محفوراً بخطوط دقيقة: «الفن في خدمة الاستقرار».

لم يطلب المحامي المعين له الكلام. لم يكن هناك ما يقال. الجميع في القاعة يعرفون النهاية منذ اللحظة الأولى.

رفع القاضي رأسه أخيراً ونظر إلى كريم للمرة الأولى.

ـ هل لديك شيء تضيفه قبل تنفيذ الحكم؟

كريم ابتسم ابتسامة صغيرة متعبة.

ـ فقط... أن الثعبان على جسدي لم يخترني. أنا من اخترته.

لم يعلّق أحد. أُغلق الملف الإلكتروني بصوت خافت، وأُضيئت أضواء خضراء على جانبي الباب الخلفي.

خرج كريم محاطاً بحارسين صامتين. في الممر الطويل المبطن بالمعدن الرمادي، سمع خطواته تتردد كأنها ليست خطواته. خلفه، كانت القاعة تُغلق أبوابها على قصائد لن تُقرأ مجدداً فوق سطح الأرض.

في الطابق السفلي، كانت توابيت التجميد تنتظر.

**الفصل الثاني

الفنانة**

كانت الغرفة ضيقة ومرتفعة السقف، جدرانها مغطاة بطبقات رقيقة من الطلاء الأبيض الذي تشقق في الزوايا. رائحة الزيت والتربينت عالقة في الهواء منذ أسابيع. ليلى جلست على الأرض، ساقاها مطويتان تحتها، فرشاة رفيعة بين أصابعها. أمامها اللوحة التي أنهتها الليلة الماضية.

لوحة كبيرة نسبياً بالنسبة للمكان. في وسطها جسد بشري شبه شفاف، نصفُه ينمو من تربة سوداء، والنصف الآخر يذوب في دخان رمادي. العينان مفتوحتان، لكنهما لا تنظران إلى أي مكان. في الزاوية السفلى كتبت بخط صغير جداً، يكاد لا يُرى: «نحن نموت ونحن أحياء».

طرقات على الباب.

ليست الطرقات العادية التي اعتادتها من الجيران. ثلاث طرقات متتالية، قصيرة وحادة، ثم صمت. ليلى لم تتحرك في البداية. وضعت الفرشاة جانباً ومسحت يديها بقطعة قماش متسخة. قلبها كان يدق بانتظام غريب، كأنه يعرف ما سيحدث قبل أن يحدث.

فتحت الباب.

رجلان ببدلتين رماديتين، بلا شارات ظاهرة، لكن عيونهما كانت تحمل الشارة. خلفهما وقفت امرأة ثالثة تحمل جهازاً صغيراً يشبه الكاميرا القديمة.

ـ ليلى سامي؟ ـ سأل الرجل الأطول.

ـ نعم.

ـ نحن من قسم الرقابة الثقافية. لدينا أمر بتفتيش المكان ومصادرة الأعمال غير المرخصة.

دخلوا دون أن ينتظروا إذناً. المرأة بدأت تصوّر الجدران واللوحات القديمة المعلقة، بينما الرجلان يتفقدان الرفوف. واحد منهما توقف أمام اللوحة الكبيرة. نظر إليها طويلاً، ثم أخرج جهازاً كفّياً ووجّهه نحوها. ضوء أزرق مسح السطح ببطء.

ـ هذه لم تُقدَّم للجنة؟ ـ سأل دون أن يلتفت إليها.

ليلى وقفت في الزاوية، يداها خلف ظهرها.

ـ لم أكن أنوي عرضها للعامة.

ـ لكنها وُجدت في معرض «الظل» قبل ثلاثة أيام. هناك صور.

ابتلعَت ريقها. كانت قد وافقت على وضعها هناك لليلة واحدة فقط، في قبو مهجور، بين أعمال أخرى لا تحمل أسماء. ظنت أن المكان آمن.

الرجل الثاني فتح درج الطاولة وسحب كراسات الرسم القديمة. قلب صفحاتها بسرعة، ثم وضعها في كيس بلاستيكي شفاف.

ـ ستأتي معنا الآن.

ـ إلى أين؟

ـ للتحقيق الأولي. بعدها يُقرر القاضي.

نظرت ليلى إلى اللوحة للمرة الأخيرة. الجسد الشفاف ما زال يحدق في الفراغ. شعرت أن شيئاً ينكسر داخلها، بهدوء، دون صوت.

في السلم الضيق، بينما كانت تهبط بين الرجلين، سمعت المرأة تقول لزميلها بصوت خافت:

ـ هذه الثالثة هذا الشهر من حي الفنانين. يبدو أنهم لم يتعلموا بعد.

خارج المبنى، كانت السماء رمادية كثيفة، والشوارع شبه خالية. سيارة بلا نوافذ انتظرتهم عند الرصيف. أُدخلت ليلى إلى المقعد الخلفي. الباب أُغلق بصوت مكتوم، وبدأت السيارة تتحرك نحو وسط المدينة، حيث تنتظر قاعات التحقيق نفسها التي دخلها كريم قبل ساعات قليلة.

في الحقيبة الشفافة التي حملها أحد الرجلين، كانت اللوحة مطوية بعناية، كأنهم يحفظون دليلاً ثميناً على جريمة لم يرتكبها أحد سوى أنها رسمت ما رأته.

**الفصل الثالث

القائد**

غرفة القيادة في سفينة الشحن «النسر الأسود» كانت باردة دائماً، حتى عندما تعمل المحركات بكامل طاقتها. القبطان راشد يكره الدفء. يقول إنه يرخي العضلات ويفتح الباب للأخطاء.

جلس في الكرسي الرئيسي، جسده الضخم يملأ المقعد المعدني حتى يبدو الكرسي أصغر مما هو. على الشاشة أمامه خريطة النجوم، ونقطة حمراء تتحرك ببطء نحو كوكب «آتو». إلى يمينه وقف المهندس (م) ـ منصور ـ يراجع قراءات المحركات النووية. إلى اليسار جلس الملاح (ي) ـ ياسر ـ يحدق في شاشة المراقبة الثانوية بوجه خالٍ من التعبير.

راشد أشعل سيجارة إلكترونية، ترك الدخان الأزرق الرقيق يتصاعد نحو فتحات التهوية.

ـ كم تابوتاً هذه المرة؟ ـ سأل دون أن ينظر إلى أحد.

منصور أجاب بسرعة:

ـ مائتان وسبعة عشر. كلها من الدفعة الأخيرة. معظمهم فنانون وكتاب... وبعض السياسيين الصغار.

راشد أصدر صوتاً يشبه الضحك المكتوم.

ـ فنانون. دائماً الفنانون. يظنون أن الكلمات والألوان أهم من النظام. ثم يبكون عندما يكتشفون أن الفضاء لا يهتم بقصائدهم.

ياسر رفع عينيه للحظة.

ـ العقود مع المستعمرات الخارجية تنتهي بعد رحلتين. الدول لم تعد متحمسة لدفع نفس الأسعار.

راشد أطفأ السيجارة ببطء على حافة الطاولة.

ـ لهذا السبب نعمل بطريقتنا. الكواكب المخصصة للمساجين بعيدة ومكلفة. أما كوكب آتو... فهو قريب، والجوعى هناك لا يسألون عن أوراق. نرمي التوابيت، نبيع أجهزة الإيقاظ لرواد الفضاء الخاصين، ونوفر الوقود والوقت. الجميع يربح... إلا المساجين طبعاً.

صمت قصير. منصور حكّ ذقنه.

ـ والرقابة؟ لو اكتشف أحدهم...

ـ لن يكتشف. التقارير تُكتب كما يجب. «تم التسليم بنجاح في المستعمرة رقم ٤». وأجهزة الإيقاظ تُباع بأسماء وهمية. أنا أفعل هذا منذ تسع رحلات. لم يسأل أحد سؤالاً واحداً.

ياسر ابتسم ابتسامة خفيفة لم تصل إلى عينيه.

ـ في الرحلة الماضية كاد أحد التوابيت أن يستيقظ مبكراً. لو لم نلاحظ الضوء الأحمر في الوقت المناسب...

راشد التفت إليه ببطء. عيناه الصغيرتان لمعَتا تحت الإضاءة الباردة.

ـ لهذا أنت هنا يا ياسر. لتلاحظ. وإذا نسيت أن تلاحظ مرة أخرى، فسأجد لك مكاناً مناسباً داخل أحد التوابيت. مفهوم؟

ياسر أخفض رأسه بسرعة.

ـ مفهوم يا قبطان.

راشد عاد إلى الشاشة. النقطة الحمراء اقتربت أكثر من آتو. على السطح البعيد للكوكب كانت الحفر العميقة تظهر كنقاط سوداء، وفي داخلها مخلوقات شبه بشرية تنتظر «الطعام» الذي يسقط من السماء كل بضعة أشهر.

تمتم راشد لنفسه:

ـ مائتان وسبعة عشر تابوتاً... سعر جيد هذه المرة.

ثم رفع صوته فجأة:

ـ بعد ثلاثة أيام نصل. جهّزا نظام الإسقاط. أريد التوابيت خارج السفينة في أقل من عشر دقائق. وكلما زاد عددها، زاد ربحنا.

منصور وياسر أومأا في صمت. لم يكن هناك ما يُقال. كلاهما يعرف أن القبطان راشد لا يمزح عندما يتحدث عن الربح، ولا عندما يتحدث عن التوابيت.

في قاعة التخزين الكبرى، على بعد طابقين أسفل غرفة القيادة، كانت مئات الأجساد المجمدة ترقد في صمت مطلق. بينها تابوت رقم ٧٧، حيث كان كريم يغط في نومٍ عميق لا يعلم متى سينتهي... أو إذا كان سينتهي أصلاً.

**الفصل الرابع

الإقلاع**

قاعة التخزين الكبرى كانت أطول من أي شيء رآه كريم في حياته. صفوف متوازية من التوابيت الشفافة تمتد حتى نهاية البصر، كل تابوت مثبت على قاعدة معدنية بسيطة، ومغطى بطبقة رقيقة من الضباب الجليدي. الإضاءة بيضاء خافتة، بلا ظلال تقريباً، كأنها مصممة لمحو أي شعور بالوقت.

الحراس دفعوه برفق لكن بحزم نحو التابوت رقم ٧٧. لم يقاوم. كان قد تجاوز مرحلة المقاومة منذ ساعات، منذ أن أُغلقت أبواب المحكمة خلفه.

المرأة التقنية ذات الوجه الجامد راجعت الرقم على جهازها، ثم قالت بصوت رتيب:

ـ اخلع ملابسك الخارجية. احتفظ بالملابس الداخلية فقط.

كريم فعل ما أُمر به. الهواء داخل القاعة كان بارداً بدرجة تجعل الجلد يقشعر في ثوانٍ. الوشم الأخضر على صدره بدا أكثر وضوحاً تحت الضوء القاسي، كأنه يتحرك قليلاً مع كل نفس.

صعد على القاعدة. استلقى على الظهر. المادة الهلامية التي تبطن التابوت بردت جسده فوراً. المرأة التقنية ثبّتت أقطاباً رفيعة على صدغيه وصدره ومعصميه، ثم أغلقت الغطاء الشفاف فوقه. صوت الإغلاق كان ناعماً ونهائياً.

قبل أن يبدأ التجميد، سمع صوتاً أنثوياً خافتاً من التابوت المجاور. لم يتمكن من إدارة رأسه، لكن الصوت كان قريباً:

ـ هل أنت خائف؟

حاول أن يجيب، لكن المادة الهلامية بدأت تتصلب حول فمه. لم يخرج منه سوى صوت مكتوم. ثم جاء الظلام، سريعاً ونظيفاً، بلا أحلام.

في التابوت المجاور، ليلى أغمضت عينيها وهي تشعر بالبرد يتسلل إلى عظامها. كانت قد رسمت موتاً كثيراً في لوحاتها، لكنها لم تتخيل أبداً أن الموت قد يكون بارداً إلى هذا الحد، ومنظماً إلى هذا الحد.

في غرفة القيادة، راشد راقب شاشة التحميل حتى اكتمل العدد: مائتان وسبعة عشر تابوتاً. ابتسم ابتسامة قصيرة.

ـ أغلقوا البوابات. استعدوا للإقلاع.

منصور أدخل الأوامر. المحركات النووية بدأت تهمس أولاً، ثم ارتفع صوتها إلى هدير مكتوم يهز أرضية السفينة بأكملها. ياسر كان يراجع مسار الرحلة للمرة الثالثة، وجهه خالٍ من أي تعبير.

راشد أشعل سيجارته الإلكترونية ونفخ الدخان نحو الشاشة.

ـ رحلة روتينية. بعد ثلاثة أشهر نصل إلى آتو، نلقي الحمولة، ونعود أثرياء أكثر بقليل.

منصور لم يرد. كان يحدق في قراءة درجة حرارة أحد المحركات التي بدت أعلى من المعتاد بقليل. ياسر قال بصوت خافت، كأنه يتحدث إلى نفسه:

ـ في الرحلة الماضية كاد أحدهم أن يستيقظ. هذه المرة... يجب أن نكون أدق.

راشد التفت إليه ببطء.

ـ أنت هنا لتراقب، لا لتُذكّرني بما أعرفه. إذا تحدثت بهذه النبرة مرة أخرى، سأضعك في تابوت فارغ وأغلق الغطاء بنفسي.

ياسر أخفض عينيه فوراً. منصور تظاهر بأنه منشغل بالأزرار.

السفينة ارتفعت عن منصة الإطلاق ببطء في البداية، ثم اندفعت نحو الطبقة العليا من الغلاف الجوي. خلفها، كانت أضواء المدينة تتحول إلى نقاط صغيرة، ثم تختفي تماماً.

في قاعة التخزين الكبرى، لم يكن هناك صوت سوى الهمس الخافت لأجهزة التجميد وهي تحافظ على درجة الحرارة عند مئة وستة وتسعين تحت الصفر. مئات الأجساد راقدة في صمت مطلق، بينها جسد كريم وجسد ليلى، لا يعرف أحدهما أن الآخر موجود على بعد أمتار قليلة فقط.

السفينة شقت طريقها في الظلام، محملة بحمولتها من المنفيين والأحلام المجمدة، متجهة نحو كوكب لن يعرف أحد أنهم وصلوا إليه أصلاً.

**الفصل الخامس

الطريق الطويل**

مرت ثلاثة أشهر.

داخل سفينة «النسر الأسود» لم يكن هناك ليل ولا نهار، فقط دورات إضاءة اصطناعية تتغير كل اثنتي عشرة ساعة حسب ساعة الأرض القديمة. راشد لم يكن يهتم بالوقت. كان يهتم بالربح والحسابات والمسافة المتبقية حتى كوكب آتو.

في غرفة القيادة، جلس القبطان أمام الشاشة الرئيسية وعيناه نصف مغمضتين. منصور كان يراجع استهلاك الوقود للمرة الرابعة في ذلك اليوم. ياسر يحدق في شاشة المراقبة الثانوية كأنه ينتظر أن يحدث شيء... أي شيء يكسر الملل.

ـ بعد أسبوعين نصل ـ قال راشد فجأة، صوته يقطع الصمت كسكين.

منصور أجاب دون أن يلتفت:

ـ إذا حافظت المحركات على نفس الكفاءة. القراءة الحرارية للمحرك الأيسر ما زالت أعلى من المعدل بقليل.

راشد لوح بيده بإهمال.

ـ ستتحمل. هذه السفينة أقدم منك ومني، وما زالت تعمل. بعد أن نلقي الحمولة على آتو، سنبيع أجهزة الإيقاظ في محطة «رأس الثور» ونعود. هذه المرة الربح سيكون أكبر. عدد التوابيت مرتفع.

ياسر تمتم بصوت خافت:

ـ والمساجين؟

راشد ضحك ضحكة قصيرة جافة.

ـ المساجين؟ هم بضاعة يا ياسر. بضاعة مجمدة. عندما يسقطون على آتو، يتحولون إلى طعام لأولئك الجوعى هناك. الجميع سعيد: نحن نربح، وهم يأكلون، والأرض تتخلص من مشكلة.

صمت طويل. منصور غير الموضوع:

ـ هل راجعت نظام الإسقاط؟

ـ جاهز. عشر دقائق وقاعة التخزين تكون فارغة.

في قاعة التخزين الكبرى، كان الصمت مطلقاً.

تحت الغطاء الشفاف للتابوت رقم ٧٧، كان كريم يغط في نوم عميق، لكن النوم لم يكن فارغاً. كانت الصور تأتي وتذهب كأمواج بطيئة:

يرى نفسه في غرفة صغيرة مليئة بالكتب القديمة، يكتب على ورق أصفر بحبر أسود. يرى وجوه الناس في الأمسية السرية وهم ينصتون إلى قصائده في صمت شبه مقدس. يرى القاضي وهو ينطق بالحكم دون أن يرفع عينيه عنه. ثم يرى الثعبان الأخضر على صدره يتحرك، يلتف حول عنقه، ويهمس له بصوت يشبه صوته هو: «لم تنتهِ الحكاية بعد».

في التابوت المجاور، كانت ليلى ترى لوحات. لوحات لم ترسمها بعد. جسد شفاف يخرج من تربة سوداء، ثم يتحول إلى دخان، ثم يعود ليصبح جسداً مرة أخرى. تسمع

صوت الفرشاة وهي تتحرك على القماش، وتشم رائحة الزيت. ثم فجأة ترى الحارسين الرماديين يدخلان محترفها، وترى اللوحة تُطوى وتُوضع في كيس شفاف كأنها جثة.

في تابوت أبعد قليلاً، كان رجل عجوز يحلم بمكتب قديم مليء بالملفات. وفي تابوت آخر، شاب يسمع صوت أمه تناديه من غرفة لم تعد موجودة.

أجهزة التجميد كانت تحافظ على الأجساد عند درجة حرارة تجعل الزمن يتوقف تقريباً. لكن العقول... العقول كانت ما تزال تتحرك في مكان ما بين النوم والعدم.

في غرفة القيادة، راشد أشعل سيجارته الإلكترونية للمرة الثالثة في ساعة واحدة.

ـ بعد أن ننتهي من آتو ـ قال وهو ينفث الدخان ـ سأفكر في رحلة خاصة. ربما إلى الحافة الخارجية. سمعت أن هناك مشترين جدداً لأجهزة الإيقاظ... يدفعون أكثر.

منصور نظر إليه من طرف عينه، ثم عاد إلى الشاشة. ياسر لم يقل شيئاً. كان يحدق في النقطة الحمراء على الخريطة وهي تقترب ببطء من كوكب صغير موحش لا يدور حول محوره، نصفه محترق ونصفه متجمد، وفي حفره العميقة مخلوقات تنتظر السماء أن تمطر عليها لحماً مجمداً.

السفينة واصلت طريقها في الظلام، محملة بمائتين وسبعة عشر نوماً عميقاً، وبثلاثة رجال لم يعد بينهم إلا المصلحة والخوف الصامت.

**الفصل السادس

الضوء الأحمر**

بدأ كل شيء بضوء أحمر صغير.

في غرفة القيادة، تألق المؤشر فجأة على الشاشة المخصصة لمراقبة توابيت التجميد. راشد كان يحتسي قهوته الباردة عندما لمح اللون. تجهم، ووضع الكوب جانباً.

ـ ياسر... انظر إلى هذا.

ياسر اقترب، عيناه تضييقان على الرقم الذي يومض: عنبر ٢٤، التابوت رقم ٧٧.

ـ خلل في نظام التجميد؟ ـ سأل بصوت خافت.

راشد هز رأسه ببطء.

ـ أو استيقاظ مبكر. اذهب وتحقق. خذ معك مسدس الصدمات. لا أريد مفاجآت.

ياسر ابتلع ريقه، أدخل المسدس في حزامه، وخرج من غرفة القيادة بخطوات سريعة.

داخل التابوت رقم ٧٧، كان الألم هو أول شيء عاد.

لم يكن ألماً حاداً، بل شيئاً أعمق، كأنه الجسد كله يُعاد تركيبه خلية بعد خلية. كريم فتح عينيه بصعوبة. الغطاء الشفاف فوقه كان مغطى بطبقة رقيقة من الصقيع من الداخل. حاول أن يتحرك، فوجد أن المادة الهلامية التي كانت تحتضنه قد بدأت تذوب وتسيل على جانبيه.

صدره يحترق. الوشم الأخضر بدا له في تلك اللحظة كأنه يتحرك فعلاً، كأنه ثعبان حقيقي يستيقظ معه.

رفع يده ببطء ولمس الغطاء من الداخل. كان بارداً جداً. ثم دفعه. في المرة الأولى لم يتحرك. في المرة الثانية تحرك قليلاً. في المرة الثالثة انفتح بصوت هسيس طويل، واندفع الهواء الدافئ نسبياً في القاعة إلى رئتيه كأنه سكين.

خرج من التابوت مترنحاً. قدماه لم تحملاه في البداية. سقط على ركبتيه فوق الأرضية المعدنية الباردة، وأخذ يتنفس بصعوبة، كل نفس يسبب له ألماً في الصدر.

حوله امتدت قاعة التخزين الكبرى في صمت مرعب.

مئات التوابيت الشفافة، صفوف لا تنتهي، كل واحد منها يحتوي على جسد راقد بلا حراك. الضباب الجليدي يغطي معظم الأغطية. الإضاءة البيضاء الخافتة تجعل المكان يبدو كمقبرة فضائية لا نهاية لها.

كريم رفع رأسه ببطء. لم يكن هناك صوت سوى الهمس البعيد لأجهزة التبريد. لا حراس، لا طاقم، لا أحد.

حاول أن ينطق اسمه، فلم يخرج سوى صوت أجش غير مفهوم. مرر لسانه على شفتيه المتشققتين، ثم حاول مجدداً:

ـ ...كريم.

الصوت عاد هذه المرة، ضعيفاً وغارباً، لكنه كان صوته.

نهض مستنداً إلى حافة التابوت. ساقيه ترتعشان. نظر إلى التابوت المجاور، ثم إلى الذي يليه. كلها مغلقة. كلها نائمة.

ثم رفع عينيه نحو السقف العالي، حيث كانت كاميرات المراقبة السوداء الصغيرة مثبتة في الزوايا. واحدة منها كانت تتحرك ببطء... وتتجه نحوه.

ابتسم كريم ابتسامة بطيئة مؤلمة، وهو يتمتم لنفسه بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ إذن... لم تنتهِ الحكاية بعد.

الضوء الأحمر في غرفة القيادة كان ما يزال يومض.

**الفصل السابع

الحقيقة**

كريم سار بين صفوف التوابيت بخطوات بطيئة وغير ثابتة. كل خطوة كانت تُرسل ألماً صامتاً في ساقيه وظهره، كأن الجسد لم يعتاد بعد على فكرة أنه حي مجدداً. الضباب الجليدي على الأغطية الشفافة كان يعكس الإضاءة الخافتة فيجعل الوجوه الراقدة تبدو أكثر شحوباً، وأكثر بعداً عن الحياة.

توقف أمام تابوت قريب. امرأة في منتصف العمر، شعرها الأسود منتشر حول رأسها كأنها تغط في نوم عميق. على جبهتها رقم صغير محفور: ١٤٢. لم يكن هناك اسم.

واصل السير.

في نهاية أحد الممرات وجد باباً جانبياً نصف مفتوح. دفعه بحذر. الممر خلفه كان أضيق، مضاءً بأضواء حمراء للطوارئ. في نهايته وجد غرفة صغيرة تشبه غرفة مراقبة ثانوية. شاشات متعددة معلقة على الجدار، معظمها يعرض صوراً ثابتة لقاعة التخزين من زوايا مختلفة. واحدة منها كانت تعرض غرفة القيادة.

ورأى راشد.

القبطان كان جالساً في كرسيه الضخم، يدخن سيجارته الإلكترونية ويتحدث إلى منصور وياسر. الصوت وصل مشوشاً في البداية، ثم اتضح تدريجياً عندما اقترب كريم من مكبر الصوت الصغير بجانب الشاشة.

ـ ... بعد أن نسقط الحمولة على آتو، نبيع الأجهزة في محطة رأس الثور. السعر هذه المرة مرتفع. المشترون الجدد لا يسألون كثيراً.

صوت منصور جاء متردداً:

ـ والكوكب... أولئك الجوعى هناك يأكلون كل شيء. حتى التوابيت أحياناً.

راشد ضحك تلك الضحكة القصيرة الجافة التي أصبحت مألوفة لكريم رغم أنه يسمعها للمرة الأولى.

ـ لهذا اخترنا آتو. لا شهود، لا تقارير، لا أسئلة. المساجين يتحولون إلى طعام، ونحن نتحول إلى أثرياء. دورة طبيعية.

ياسر قال شيئاً لم يلتقطه كريم بوضوح، ثم جاء صوت راشد حاداً:

ـ لا أريد سماع كلمة «أخلاق» داخل هذه السفينة. نحن لسنا قضاة ولا مصلحين. نحن ناقلو بضاعة. والبضاعة هذه المرة مربحة جداً.

كريم شعر أن شيئاً يتجمد داخل صدره من جديد، لكن هذه المرة ليس من البرد.

تراجع خطوة إلى الخلف. الشاشات كانت ما تزال تعرض الوجوه النائمة في التوابيت. مئات الأجساد التي ستُرمى قريباً على سطح كوكب موحش، لتتحول إلى طعام لمخلوقات لا تعرف حتى أسماءها.

أدار رأسه نحو الباب الذي جاء منه. في القاعة الكبرى، كان التابوت رقم ٧٧ لا يزال مفتوحاً، والمادة الهلامية تسيل على حافته ببطء. وعلى بعد أمتار قليلة منه، كان هناك تابوت آخر... غطاؤه لم يكن مغطى بالضباب تماماً مثل الباقين.

اقترب منه.

من خلال الطبقة الشفافة رأى وجهاً أنثوياً شاحباً، وشعراً أسود طويلاً منتشراً حول الرأس. على الجبين رقم صغير: ٧٨.

كريم وضع يده على الغطاء. كان بارداً جداً. ثم همس، كأنه يخاطب نفسه أكثر مما يخاطبها:

ـ انتظري... لن أتركك هنا.

خلفه، على الشاشة في غرفة المراقبة الصغيرة، كان راشد يطفئ سيجارته ويقول بصوت واضح هذه المرة:

ـ بعد يومين نصل. جهّزوا نظام الإسقاط. أريد القاعة فارغة في أقل من عشر دقائق.

كريم أغمض عينيه للحظة، ثم فتحهما من جديد. الوشم الأخضر على صدره بدا له في تلك اللحظة أكثر وضوحاً تحت الضوء الأحمر الخافت، كأنه يتوهج من الداخل.

**الفصل الثامن

الفتاة**

وقف كريم أمام التابوت رقم ٧٨ وقتاً طويلاً قبل أن يمد يده.

الغطاء الشفاف كان أكثر سماكة مما توقعه، ومقاومته للفتح أكبر. اضطر إلى البحث في الغرفة الجانبية عن أداة حادة، فعثر على قضيب معدني رفيع يستخدم عادة في صيانة الوحدات. أدخله في الفجوة الصغيرة بجانب القفل الإلكتروني، وضغط بكل ثقله.

صوت الهسيس جاء أطول هذه المرة. الهواء الدافئ اندفع إلى داخل التابوت، والضباب الجليدي بدأ يتبدد ببطء.

ليلى فتحت عينيها.

في البداية لم تكن ترى شيئاً واضحاً. كل شيء كان ضبابياً ومؤلماً. ثم ظهر وجه رجل فوقها مباشرة: شاحب، ذو لحية خفيفة، ووشم أخضر يشبه الثعبان يلتف على صدره العاري. حاولت أن تصرخ، لكن صوتها خرج مبحوحاً وضعيفاً كأنه يأتي من مكان بعيد جداً.

كريم تراجع نصف خطوة ورفع يديه ليظهر أنهما فارغتان.

ـ لا تخافي. أنا مثلك… كنت داخل أحد التوابيت.

ليلى حاولت الجلوس. المادة الهلامية كانت لا تزال لزجة حول جسدها، وتجعل الحركة صعبة. ارتجف جسدها كله من البرد المفاجئ. كريم خلع القميص الرمادي الرقيق الذي كان قد عثر عليه في خزانة جانبية ولفّه حول كتفيها دون أن يلمسها أكثر من اللازم.

ـ بطيء... التنفس ببطء. الجسد يحتاج وقتاً.

مرّت دقائق قبل أن تتمكن من الكلام. صوتها كان أجشّ، كصوت شخص لم يستخدم حنجرته منذ شهور:

ـ أين... نحن؟

ـ داخل سفينة شحن. اسمها «النسر الأسود». كانوا ينقلوننا... مجمّدين.

نظرت حوله للمرة الأولى حقاً. رأت صفوف التوابيت اللامتناهية، والإضاءة البيضاء الباردة، والصمت الذي يشبه صمت المقابر. ارتجفت من جديد.

ـ لماذا أيقظتني؟

كريم صمت لحظة، ثم قال بصوت منخفض:

ـ لأنهم لن يوصلونا إلى أي مستعمرة. سيلقون بنا على كوكب موحش... ليأكلنا من يعيشون هناك. سمعتهم يتحدثون.

ليلى حدقت فيه. عيناها كانتا كبيرتين ومذعورتين، لكن شيئاً من الفهم بدأ يتسلل إليهما. مررت لسانها على شفتيها المتشققتين.

ـ أنت... الشاعر؟

رفع حاجبيه في دهشة خفيفة.

ـ كيف عرفت؟

ـ الوشم. سمعنا في زنزانات الانتظار عن شاب موشوم بثعبان... كتب قصائد لم توافق عليها اللجنة.

ابتسم كريم ابتسامة صغيرة مريرة.

ـ وأنا سمعت عن فنانة رسمت لوحة عن الموت والحياة... فجلبتها إلى هنا.

صمت طويل. ليلى نظرت إلى يديها اللتين ما زالتا ترتجفان، ثم إلى التوابيت المحيطة.

ـ هل نحن الوحيدان المستيقظان؟

ـ حتى الآن. نعم.

رفعت عينيها إليه من جديد. هذه المرة كان الخوف ما يزال موجوداً، لكنه لم يعد الخوف الوحيد. كان هناك شيء آخر: حذر، وفضول، وبداية ثقة هشة جداً.

ـ ماذا سنفعل؟

كريم نظر إلى الكاميرات السوداء في سقف القاعة، ثم عاد إليها.

ـ أولاً... نتأكد أنهما لا يعرفان أننا مستيقظان. ثم نفكر في الباقي.

مدّ يده إليها ببطء هذه المرة، ليس ليلمسها، بل ليشير إلى الباب الجانبي.

ـ هل تستطيعين المشي؟

ليلى أمسكت بحافة التابوت ونهضت ببطء. ساقاها كانتا ضعيفتين، لكنها وقفت. القميص الرمادي كان واسعاً عليها، وشعرها الأسود الطويل سقط على كتفيها كستارة مبللة.

ـ أستطيع ـ قالت بصوت أقوى قليلاً هذه المرة.

سار الاثنان بين صفوف التوابيت النائمة، خطواتهما حذرة وشبه صامتة. خلفهما، الغطاء الشفاف للتابوت رقم ٧٨ بقي مفتوحاً، والمادة الهلامية تسيل على حافته قطرة فقطرة، كأنها دموع بطيئة لشيء كان ميتاً وأُجبر على العودة.

**الفصل التاسع

القرار**

اختبآ في غرفة المراقبة الثانوية الصغيرة. الباب أُغلق خلفهما بهدوء، والشاشات ما زالت تعرض صور قاعة التخزين وغرفة القيادة. راشد كان يأكل شيئاً من علبة معدنية، ومنصور يراجع أرقاماً على لوحة، وياسر يحدق في الفراغ كعادته.

ليلى جلست على الأرض مستندة إلى الجدار، القميص الرمادي ملفوف حولها بإحكام. كريم وقف أمام الشاشات، يراقب دون أن يقترب أكثر من اللازم.

مرّت ساعة كاملة في صمت تقريباً. ثم قالت ليلى بصوت خافت:

ـ كم تبقى حتى نصل إلى ذلك الكوكب؟

ـ يومان... ربما أقل. سمعتهم يقولون إن الإسقاط سيكون سريعاً. عشر دقائق وتصبح القاعة فارغة.

أمسكت ليلى بيديها معاصمها كأنها تحاول أن تدفئهما.

ـ وإذا أيقظنا الآخرين؟

كريم التفت إليها. الوجه الشاحب والعينان الواسعتان كانا ينتظران إجابة واضحة، لكنه لم يكن يملك واحدة.

ـ لا نعرف من هم. بعضهم كتب قصائد أو رسم لوحات مثلنا... وبعضهم ربما قتل أو خان أو فعل أشياء لا نريد أن نعرفها. النظام لا يفرّق كثيراً. كل من يخرج عن «الانسجام» يُرسل إلى هنا.

ـ لكنهم سيموتون إذا لم نفعل شيئاً.

ـ أعرف.

صمت. على إحدى الشاشات ظهر راشد وهو يضحك ضحكته القصيرة الجافة ويصفق منصور على كتفه.

ليلى قالت بعد لحظة:

ـ وإذا استولينا على السفينة؟ نحن اثنان فقط... وهم ثلاثة مسلحون ويعرفون كل شيء عن هذا المكان.

كريم مرر يده على وجهه. الوشم الأخضر بدا داكناً تحت الضوء الأحمر الخافت.

ـ لا أفكر في قتال مباشر الآن. أفكر في الوقت. إذا أبقينا أنفسنا مخفيين حتى اللحظة الأخيرة، ربما نستطيع أن نفعل شيئاً أثناء الإسقاط... أو بعده. السفينة لن تكون فارغة تماماً. هناك مخازن، وهناك أنظمة يمكن تعطيلها.

نظرت إليه طويلاً.

ـ أنت تتحدث كأنك خططت لهذا من قبل.

ابتسم ابتسامة متعبة.

ـ لا. لكنني كتبت عن أناس يُعاملون كبضاعة طوال سنوات. لم أكن أصدق أنني سأصبح أحدهم.

ليلى أخفضت عينيها إلى يديها.

ـ لوحتي كانت عن جسد يذوب في دخان... ثم يعود من التراب. ظننت أنها مجرد فكرة. لم أكن أعرف أنها ستصبح حقيقية بهذا الشكل.

رفع كريم رأسه نحو السقف، حيث كانت إحدى الكاميرات تشير إلى زاوية بعيدة في قاعة التخزين.

ـ هناك سؤال أهم من الاستيلاء على السفينة الآن.

ـ ما هو؟

ـ هل نوقظ أحداً غيرنا... أم ننجو نحن فقط؟

الصمت الذي تلا السؤال كان أثقل من كل الصمت السابق. ليلى لم تجب فوراً. نظرت إلى الشاشات، إلى مئات التوابيت التي تبدو كأنها قبور شفافة، ثم عادت إليه.

ـ لا أعرف ـ قالت أخيراً بصوت مبحوح. ـ إذا أيقظناهم، قد نموت جميعاً. وإذا تركناهم... سنحمل موتهم معنا إلى الأبد.

كريم جلس على الأرض مقابلها. المسافة بينهما لم تكن تزيد على متر، لكن العالم كله كان يبدو معلقاً بينهما.

ـ إذن نؤجل القرار ـ قال بهدوء. ـ نراقب. ننتظر. وعندما يقترب الوقت... نقرر معاً.

ليلى أومأت برأسها ببطء. للمرة الأولى منذ استيقاظها، بدا أن شيئاً يشبه الاتفاق قد نشأ بينهما. ليس ثقة كاملة بعد، لكن بداية شيء يمكن البناء عليه.

على الشاشة، راشد أطفأ سيجارته وقال بصوت واضح:

ـ بعد غد... ننتهي من هذه الشحنة. ثم نفكر في الرحلة التالية.

كريم وليلى نظرا إلى بعضهما في الصمت الأحمر الخافت، وكل منهما يعرف أن «بعد غد» قد يكون آخر يوم لهما... أو أول يوم حقيقي.

**الفصل العاشر

أول ضحية**

التوتر داخل غرفة القيادة لم يعد خفياً.

راشد كان يمشي جيئة وذهاباً بين الشاشات، خطواته الثقيلة تتردد في المعدن. منصور يراجع أرقام المحركات للمرة السابعة في ساعتين، وياسر يجلس في مكانه كتمثال، عيناه على شاشة المراقبة دون أن يرى شيئاً حقاً.

ـ القراءة الحرارية ما زالت مرتفعة ـ قال منصور أخيراً، صوته جاف. ـ إذا استمررنا بهذا الضغط حتى آتو، قد نفقد المحرك الأيسر.

راشد توقف فجأة والتفت إليه.

ـ منذ ثلاث رحلات وأنت تكرر الشيء نفسه. المحركات تعمل. السفينة تصل. نحن نربح. هذا كل ما يهم.

ياسر تمتم دون أن يرفع عينيه:

ـ في الرحلة الماضية كدنا نفقد السيطرة على نظام الإسقاط بسبب ارتفاع الحرارة...

راشد اقترب منه ببطء. ظله غطى نصف الشاشة.

ـ أنت تتحدث كثيراً هذه الأيام يا ياسر. هل نسيت ما قلته لك عن التوابيت الفارغة؟

ياسر أطبق فكيه ولم يرد. منصور تدخل بسرعة، محاولاً تهدئة الجو:

ـ نحن فقط نحرص على أن تتم العملية بنجاح. الإسقاط بعد غد يحتاج إلى دقة. إذا تعطل شيء...

راشد ضحك ضحكته القصيرة.

ـ سينجح. كما نجح تسع مرات قبلها. أنتما هنا لتنفذا، لا لتفكرا. اتركا التفكير لي.

خرج من غرفة القيادة متجهاً إلى مقصورته الخاصة، بابها أُغلق خلفه بقوة.

في اللحظة التي اختفى فيها، نظر منصور إلى ياسر. للمرة الأولى منذ أسابيع، تلاقى نظرهما بشيء يشبه التفاهم.

ـ هو يقتلنا ببطء ـ همس منصور. ـ في كل رحلة يزداد جشعاً وتهوراً. يوماً ما ستنهار المحركات ونحن في منتصف الطريق، وسنموت معه.

ياسر ظل صامتاً لحظة، ثم قال بصوت بالكاد مسموع:

ـ أو نموت قبله... إذا قرر أن أحدنا فائض عن الحاجة.

منصور نظر إلى الباب المغلق.

ـ هناك أجهزة إيقاظ في المخزن الثانوي. وأسلحة. إذا انتظرنا حتى ينشغل بالإسقاط...

لم يكمل الجملة. لم يكن بحاجة إلى إكمالها. ياسر أومأ برأسه مرة واحدة فقط، ثم عاد إلى الشاشة كأنه لم يقل شيئاً.

في غرفة المراقبة الثانوية، كان كريم وليلى يسمعان كل شيء.

الصوت كان يصل مشوشاً أحياناً، لكنه كان واضحاً بما يكفي. ليلى نظرت إلى كريم، عيناها واسعتان في الضوء الأحمر.

ـ إنهم ينقلبون على بعضهم.

كريم كان يحدق في الشاشة التي تعرض غرفة القيادة الفارغة الآن.

ـ هذا يمنحنا وقتاً... وربما فرصة. إذا تقاتلوا فيما بينهم، تصبح السفينة أضعف.

ـ أو تصبح أكثر خطورة. الرجل الجريح يكون أخطر أحياناً.

أومأ كريم موافقاً. مدّ يده إلى لوحة صغيرة بجانب الشاشات وبدأ يتنقل بين الكاميرات. رأى قاعة التخزين من زوايا مختلفة، ورأى الممر المؤدي إلى المخازن، ورأى الباب الذي يؤدي إلى غرفة القيادة.

ـ نحتاج إلى خريطة أوضح للسفينة ـ قال. ـ وأماكن الأسلحة. وإذا كان هناك طريقة لتعطيل نظام الإسقاط من هنا...

ليلى اقتربت منه قليلاً، تنظر إلى الشاشات معه.

ـ وهل ما زلنا نؤجل قرار إيقاظ الآخرين؟

كريم صمت للحظة طويلة. على إحدى الشاشات ظهرت صورة التوابيت النائمة، مئات الأجساد التي لا تعرف أن موتها يقترب.

ـ نؤجله حتى الغد ـ قال أخيراً. ـ إذا بدأ الطاقم في قتل بعضه بعضاً... قد لا نحتاج إلى إيقاظ أحد. أو قد نحتاج إلى الجميع.

ليلى لم ترد. جلست بجانبه على الأرض، كتفاها يلامسان كتفه للمرة الأولى منذ استيقاظهما. الحرارة الخافتة التي خرجت من جسده بدت لها في تلك اللحظة كأنها الشيء الوحيد الدافئ في السفينة كلها.

في غرفة القيادة، عاد راشد بعد أقل من ساعة. وجد منصور وياسر في مكانيهما، هادئين جداً، مطيعين جداً. ابتسم راشد راضياً، دون أن يلاحظ أن الصمت بينهما أصبح شيئاً آخر تماماً.

شيئاً ينتظر اللحظة المناسبة.

**الفصل الحادي عشر

الإسقاط**

عندما ظهرت صورة كوكب آتو على الشاشة الرئيسية، بدا كأنه حجر محروق نصفُه ومظلم نصفُه الآخر. لا غلاف جوي يستحق الذكر، لا محيطات، فقط سطح مليء بالحفر العميقة التي تشبه البثور السوداء، وتلال من رمال داكنة تتحرك مع رياح ضعيفة.

راشد وقف أمام الشاشة مبتسماً.

ـ وصلنا. ابدأوا العد التنازلي لنظام الإسقاط.

منصور أدخل الأوامر بأصابع سريعة. ياسر راقب القراءات دون أن ينبس بكلمة. في قاعة التخزين الكبرى، بدأت الأضواء الصفراء تومض فوق صفوف التوابيت. الأرضية المعدنية اهتزت اهتزازة خفيفة، ثم انزلقت أقسام كاملة منها إلى الجانبين كأنها أدراج عملاقة.

التوابيت بدأت تسقط.

واحداً بعد الآخر، ثم عشرات دفعة واحدة. سقطت عبر الفتحات السفلية إلى الفضاء الخارجي، ثم انجذبت نحو سطح الكوكب بفعل الجاذبية الضعيفة. بعضها تحطم عند الاصطدام، وبعضها بقي سليماً نسبياً وهو يرتطم بالرمال.

على سطح آتو، داخل إحدى الحفر العميقة، كان الحكيم سوكا يرفع رأسه إلى السماء السوداء. منذ أيام وهو يعدّ أبناء قبيلته بأن الطعام سياتي. الأطفال ببطونهم المنتفخة وعيونهم الغائرة كانوا ينظرون إليه بحقد صامت. الآباء والأمهات كذلك.

ثم جاء الطعام.

أجسام شفافة تسقط من السماء كالمطر. بعضها ينفجر عند الارتطام فيتناثر ما بداخله، وبعضها يبقى مغلقاً. صاح الرجال والنساء والأطفال دفعة واحدة، واندفعوا من الكهوف الصخرية نحو السهل. أظافرهم وأسنانهم الحادة مزقت الأغطية البلاستيكية والألياف الكربونية. التهموا ما وجدوه بسرعة ووحشية، كأنهم لم يأكلوا منذ شهور... وهذا صحيح.

سوكا وقف على حافة الحفرة يراقب. الدماء سالت على الرمال الداكنة، والصرخات اختلطت بعواء الرياح. للحظة قصيرة شعر بالاشمئزاز، ثم ابتلعه الجوع القديم الذي يسكن أحشاء الجميع هنا. انضم إليهم.

في غرفة المراقبة الثانوية، كان كريم وليلى يشاهدان كل شيء على الشاشات.

الكاميرات الخارجية التقطت لحظات السقوط: التوابيت تتدحرج في الفراغ، ثم ترتطم، ثم تُحاصر من كل الجهات بمخلوقات هزيلة شبه عارية، عيونها لامعة بالجوع. ليلى وضعت يدها على فمها كي لا تصرخ. كريم كان شاحباً جداً، يداه مقبوضتين حتى ابيضت مفاصله.

ـ هذا... ما كانوا يقصدونه بالحمولة ـ همست ليلى بصوت مكسور.

كريم لم يرد فوراً. كان يتابع الأرقام على إحدى الشاشات الجانبية: مئة وثلاثة توابيت سقطت في المرور الأول. ما زال هناك أكثر من مئة في القاعة.

على شاشة غرفة القيادة ظهر راشد وهو يضحك ويصفق بكفيه.

ـ مرورٍ ثانٍ بعد قليل. أريد القاعة أن تصبح فارغة تماماً. كل تابوت يسقط يعني ربحاً إضافياً.

منصور كان ينفذ الأوامر بصمت. ياسر كان ينظر إلى الشاشة بوجهٍ لا يمكن قراءة شيء فيه.

ليلى التفتت إلى كريم، عيناها ممتلئتين بالدموع التي رفضت أن تسقط.

ـ هل ما زلنا نؤجل؟ ـ سألت بصوت بالكاد مسموع. ـ هل نترك الباقين يسقطون أيضاً؟

كريم أغمض عينيه للحظة. عندما فتحهما كان فيهما قرار قاسٍ وواضح.

ـ لا. لم يعد هناك وقت للتأجيل.

نهض واقفاً. الوشم الأخضر على صدره بدا في الضوء الأحمر كأنه ينبض.

ـ نوقظ من نستطيع الآن. وقبل المرور الثاني... نحاول أن نوقف هذا الجنون.

ليلى نهضت بجانبه. يداها ما زالتا ترتجفان، لكن صوتها جاء أكثر ثباتاً هذه المرة:

ـ إذن... لنبدأ.

**الفصل الثاني عشر

الخيانة**

بعد انتهاء المرور الأول، عادت قاعة التخزين شبه فارغة. أكثر من مئة تابوت سقطت، والباقي ينتظر المرور الثاني. راشد كان راضياً. وقف في وسط غرفة القيادة وسكب لنفسه شيئاً من زجاجة صغيرة كان يحتفظ بها للمناسبات الخاصة.

ـ أحسنتم. المرور الثاني بعد ساعة. بعدها ننتهي ونغير المسار نحو محطة رأس الثور.

منصور أومأ برأسه، لكنه لم يبتسم. ياسر ظل صامتاً في مكانه. راشد شرب رشفة ونظر إليهما بدوره.

ـ ما هذا الصمت؟ المفروض أن نحتفل. هذه أكبر شحنة نرميها حتى الآن.

منصور قال بهدوء مصطنع:

ـ المحرك الأيسر ارتفعت حرارته أكثر أثناء الإسقاط. يحتاج إلى تبريد قبل أن نتحرك.

راشد لوح بيده.

ـ سيتبرد وحده. أنتما دائماً تبحثان عن مشاكل.

التفت نحو الشاشة، وظهر ظهره لهما للحظة قصيرة. في تلك اللحظة بالذات تلاقى نظر منصور وياسر. لم يتكلما، لكن الإشارة كانت واضحة.

ياسر مدّ يده ببطء نحو مسدس الصدمات المعلق على جنبه. منصور تحرك نصف خطوة إلى اليسار، ليصبح في زاوية أفضل.

راشد أحس بالشيء قبل أن يراه. ربما حركة الظل، أو تنفس مختلف، أو غريزة الرجل الذي قتل من قبل. استدار بسرعة مدهشة بالنسبة لرجل بدين، ومسدسه الإشعاعي كان في يده قبل أن يصل ياسر إلى سلاحه.

الضوء الأبيض قطع الغرفة.

منصور سقط على الأرض دون أن يصدر صوتاً تقريباً. فتحة محترقة في صدره ما زالت تدخن. عيناه مفتوحتان في دهشة أخيرة.

ياسر تجمد في مكانه، يده ما زالت في منتصف الطريق إلى المسدس. راشد صوّب نحوه دون أن يرمش.

ـ اعتقدت أنني لا أرى؟ ـ قال بصوت هادئ جداً، أخطر من الصراخ. ـ اعتقدت أنني غبي إلى هذه الدرجة؟

ياسر ابتلع ريقه.

ـ كنا... فقط نقلق على السفينة.

ـ اقلقوا في التوابيت.

راشد ضغط على زر في لوحة التحكم. باب الأمان المؤدي إلى قاعة التخزين فُتح عن بعد. ثم أشار بمسده.

ـ امشِ.

ياسر مشى. خطواته كانت بطيئة ومهتزة. راشد سار خلفه حتى وصلا إلى القاعة شبه الفارغة. التوابيت المتبقية كانت متناثرة هنا وهناك، وبعضها مائل بسبب انزلاق الأرضية السابق.

ـ افتح ذلك الباب ـ أمر راشد، مشيراً إلى إحدى فتحات الإسقاط التي لم تُغلق تماماً بعد.

ياسر تردد. راشد رفع المسدس أعلى قليلاً. فتح ياسر القفل اليدوي. الهواء بدأ يتسرب بصوت صفير حاد. الجاذبية الاصطناعية ضعفت في تلك المنطقة.

ـ اقفز ـ قال راشد.

ـ أرجوك...

الضوء الأبيض لمع مرة أخرى، هذه المرة في ساق ياسر. صرخ وسقط على حافة الفتحة. راشد اقترب وركل جسده إلى الخارج بحركة واحدة قوية. ياسر اختفى في السواد، فمه ما زال مفتوحاً على صرخة لم يعد أحد يسمعها.

راشد أغلق الفتحة، وعاد إلى غرفة القيادة لوحده. جثة منصور ما زالت على الأرض. نظر إليها لحظة، ثم سحبها إلى الزاوية وتركها هناك. جلس في كرسيه، أشعل سيجارته الإلكترونية، وأخذ نفساً عميقاً.

ـ الآن أصبح الأمر أبسط ـ تمتم لنفسه. ـ لا شركاء... ولا خونة.

على الشاشة الجانبية، كان المؤشر الأحمر يومض من جديد فوق أحد التوابيت المتبقية، لكن راشد لم ينتبه. كان منشغلاً بإعادة ترتيب خططه الجديدة: رحلة العودة، بيع الأجهزة، والربح الذي سيصبح الآن كله له وحده.

في غرفة المراقبة الثانوية، كان كريم وليلى قد شاهدا الجزء الأخير عبر الكاميرات. ليلى كانت تغطي فمها بكلتا يديها. كريم كان شاحباً كالموت، لكنه لم يعد يرتجف.

ـ بقي واحد فقط ـ همس. ـ وأصبح أكثر خطورة... وأكثر وحدة.

ليلى أنزلت يديها ببطء.

ـ إذن حان الوقت.

**الفصل الثالث عشر

الاستيلاء**

انتظرا حتى انشغل راشد بإعداد المرور الثاني.

كريم كان قد درس الممرات خلال الساعات الماضية. عرف أي الأبواب تفتح ببطاقات الطاقم التي عثرا عليها في خزانة جانبية، وأي الكاميرات يمكن تجاوزها بالسير ملاصقاً للجدران. ليلى سارت خلفه في صمت تام، شعرها الأسود مربوط بعقدة سريعة، والقميص الرمادي مربوط حول وسطها كي لا يعيق حركتها.

وصلا إلى الباب الأخير قبل غرفة القيادة. كريم أخرج مسدس الصدمات الذي أخذه من جثة منصور. كان ثقيلاً في يده، وغريباً. نظر إلى ليلى مرة أخيرة. أومأت برأسها.

فتح الباب.

راشد كان واقفاً أمام الشاشة الرئيسية، ظهره إليهما، يتحدث إلى نفسه وهو يدخل أوامر الإسقاط. لم يلتفت في البداية. عندما التفت أخيراً، كانت المفاجأة واضحة على وجهه للحظة قصيرة جداً، ثم تحولت إلى غضب بارد.

ـ أنتما... ـ قال ببطء. ـ التابوت رقم ٧٧... والفتاة.

رفع مسدسه الإشعاعي بسرعة مدهشة. كريم أطلق أولاً. الشحنة الكهربائية أصابت ذراع راشد وجعلته يتراجع خطوة ويصطدم بالكرسي. المسدس الإشعاعي سقط من يده وانزلق على الأرضية.

انقض راشد رغم الإصابة. جسده الضخم اصطدم بكريم وطرحه أرضاً. اليدان القويتان أحاطتا بعنق كريم وبدأتا تضغطان. الهواء انقطع. الوشم الأخضر بدا وكأنه يبرز أكثر تحت الضغط.

ليلى لم تفكر. التقطت المسدس الإشعاعي من الأرض بكلتا يديها. كان أثقل مما توقعت. صوبته نحو الظهر العريض المنحني فوق كريم، ويدها ترتجف بعنف.

ـ ابتعد عنه!

راشد التفت برأسه فقط، وعيناه مليئتان بالاحتقار.

ـ أنتِ؟ الفنانة؟ لن تضغطي على الزناد. أنتم تكتبون وترسمون... لا تقتلون.

ليلى ضغطت.

الضوء الأبيض ملأ الغرفة للحظة. راشد تجمد. فتحة محترقة ظهرت في جنبه الأيمن. أرخى يديه عن عنق كريم، ونظر إلى بطنه بدهشة حقيقية هذه المرة. حاول أن يقول شيئاً، لكن الدم ملأ فمه. سقط على جنبه الثقيل، ثم على ظهره.

كريم نهض وهو يسعل ويمسك عنقه. ليلى ما زالت تمسك المسدس بكلتا يديها، الذراعان ممدودتان، الوجه أبيض كالثوب. المسدس سقط منها أخيراً وارتطم بالأرضية بصوت معدني.

ـ أنا... قتلته ـ همست كأنها لا تصدق صوتها.

كريم اقترب منها ببطء، أمسك كتفيها.

ـ أنقذت حياتي. هذا ما فعلته.

نظر الاثنان إلى الجثة. راشد كان ما يزال يتنفس بصعوبة لثوانٍ قليلة، ثم توقف. عيناه بقيتا مفتوحتين.

كريم سحب الجثة نحو باب الأمان الذي يؤدي إلى فتحات الإسقاط. ليلى ساعدته في صمت. معاً دفعا الجسد الضخم حتى حافة الفتحة التي كانت ما تزال نصف مفتوحة من المرور السابق. دفعة أخيرة، وسقط راشد في السواد نحو كوكب آتو، ليلحق بالتوابيت التي رماها هو بنفسه.

عندما أغلقا الفتحة وعادا إلى غرفة القيادة، كان المكان هادئاً بشكل غريب. الشاشات ما زالت تعمل، والمحركات تهمس في الخلفية، وجثة منصور في الزاوية تبدو كجزء من الأثاث الآن.

ليلى جلست على الأرض مستندة إلى الحائط، يداها ترتجفان بعنف. كريم جلس بجانبها. للمرة الأولى منذ استيقاظهما، لم يكن هناك أحد آخر يهددهما داخل السفينة.

ـ انتهينا منه ـ قال كريم بصوت أجش.

ليلى رفعت عينيها إليه. فيهما رعب، وإرهاق، وشيء آخر يشبه البداية.

ـ نعم... انتهينا منه.

خارج النوافذ المصفحة، كان كوكب آتو يبتعد ببطء، سطحه المليء بالحفر يبتلع ما سقط عليه، بما في ذلك الرجل الذي ظن أنه سيملك كل شيء.

**الفصل الرابع عشر

الصمت**

غرفة القيادة كانت هادئة الآن بهدوء غير طبيعي.

الشاشات ما زالت تعمل، تعرض خرائط النجوم وقراءات المحركات وصور الكاميرات الخارجية. كوكب آتو كان قد أصبح نقطة صغيرة خلفهم. جثة منصور ما زالت في الزاوية، والبقعة الداكنة على الأرضية حيث سقط راشد لم تُمسح بعد. رائحة الشحنة الإشعاعية المحترقة عالقة في الهواء مع رائحة الدم المعدنية.

كريم جلس في الكرسي الرئيسي لأول مرة. المقعد كان واسعاً جداً عليه، وما زال دافئاً من جسد راشد. ليلى وقفت أمام النافذة المصفحة، تحدق في السواد الذي لا ينتهي.

مرّت دقائق طويلة دون أن ينطق أحدهما بكلمة.

أخيراً قالت ليلى، صوتها خافت كأنه يأتي من مكان بعيد:

ـ لم أطلق النار على أحد من قبل.

كريم أغمض عينيه لحظة.

ـ وأنا لم أقتل أحداً... حتى اليوم. نحن الآن مثلهم.

ـ لا ـ ردت بسرعة، ثم أضافت بصوت أضعف: ـ لسنا مثلهم. هم كانوا يرمون الناس ليُؤكلوا. نحن... دافعنا عن أنفسنا.

الصمت عاد من جديد. أثقل هذه المرة.

كريم نهض وتجول في الغرفة. فتح الخزائن واحدة بعد أخرى. وجد مخزوناً من الطعام المركّز يكفي لأشهر، وملابس الطاقم، وأدوات طبية، وثلاث بنادق إضافية، وجهاز اتصال بعيد المدى. في درج صغير تحت لوحة التحكم وجد دفتر يوميات راشد. صفحاته مليئة بأرقام وأسعار وأسماء مشترين لأجهزة الإيقاظ. في الصفحة الأخيرة كتب راشد بخط خشن: «بعد هذه الشحنة... أستريح».

أغلق الدفتر ورماه على الطاولة.

ليلى التفتت إليه.

ـ ماذا سنفعل الآن؟

ـ أولاً نتأكد أن لا أحد غيرنا مستيقظ. ثم نغلق فتحات الإسقاط تماماً. ثم... نقرر إلى أين نذهب.

ـ الأرض؟

هز رأسه.

ـ محرّمة علينا. بمجرد أن ندخل مجالها ستتعرف علينا الأنظمة الآلية كمساجين هاربين. الحكم كان نفياً أبدياً.

ـ إذن إلى أين؟

كريم نظر إلى الخريطة النجمية على الشاشة الرئيسية. نقاط الضوء اللامتناهية بدت فجأة أقرب وأبعد في الوقت نفسه.

ـ لا أعرف بعد. لكن السفينة تعمل. الوقود يكفي لسنوات إذا استخدمناه بحكمة. والطعام موجود. نحن... أحرار الآن. بطريقة غريبة ومرعبة.

ليلى اقتربت من الكرسي وجلست على حافته. شعرها الأسود كان لا يزال مبعثاً، ويداها لم توقفا الارتجاف تماماً.

ـ هل نشعر بالحرية فعلاً؟ ـ سألت. ـ أم نشعر فقط أننا لم نعد نموت خلال ساعة؟

كريم نظر إليها طويلاً. للمرة الأولى منذ استيقاظهما، رأى فيها شيئاً غير الخوف والإرهاق. رأى السؤال الحقيقي الذي يطرحه كل من خرج للتو من تحت أنقاض حياته القديمة.

ـ لا أعرف الفرق بعد ـ أجاب بصدق. ـ لكنني أعرف أننا للمرة الأولى نستطيع أن نختار.

خارج السفينة كان الظلام كاملاً. لا نجوم قريبة بما يكفي لتبدو كبيرة، ولا كواكب، ولا شيء سوى الفراغ الذي ابتلع راشد والتوابيت وكل الخطط القديمة.

داخل غرفة القيادة جلس اثنان فقط، محاطين بصمت ثقيل ودماء جافة وأجهزة ما زالت تهمس بأرقام لم تعد تعني شيئاً لأحد غيرهما.

الصمت لم يكن فارغاً تماماً. كان مليئاً بكل الأسئلة التي لم يجيبوا عليها بعد، وبكل الاحتمالات التي بدأت للتو في التشكل.

**الفصل الخامس عشر

المخزون**

في اليوم التالي، بعد أن ناما نوماً متقطعاً وثقيلًا في مقعدين منفصلين داخل غرفة القيادة، قررا أن يستكشفا السفينة بشكل منهجي.

بدآ من الطابق العلوي. غرف الطاقم كانت ثلاثاً فقط. غرفة راشد كانت الأكبر، فيها سرير عريض وخزانة ملابس ودرج مليء بزجاجات صغيرة وأوراق حسابات قديمة. غرفة منصور كانت مرتبة بدقة مفرطة، وغرفة ياسر شبه فارغة إلا من بعض الملابس المتناثرة وصورة مطبوعة لامرأة وطفل وضعها تحت الوسادة.

ليلى وقفت أمام الصورة وقتاً طويلاً دون أن تلمسها.

ـ حتى هم كانوا بشراً... بطريقة ما ـ همست.

كريم لم يرد. أغلق الباب ومضيا.

الطابق الأوسط كان يحتوي على المخازن. الباب الأول فتح على غرفة باردة مليئة بعلب الطعام المركّز ranked في صفوف معدنية. كريم حسب بسرعة:

ـ إذا أكلنا باعتدال... يكفي لعامين على الأقل. ربما أكثر.

الغرفة التالية كانت للملابس. بدلات فضائية احتياطية، ملابس داخلية، أحذية، ومعاطف خفيفة. عثرا أيضاً على ملابس المساجين الرسمية: رمادية، خشنة، بلا جيوب. ليلى أخذت واحدة منها وقيستها على جسدها، ثم رمتها جانباً.

ـ لن ألبس هذا اللون مرة أخرى.

المخزن الثالث كان الأهم. فيه أدوات الصيانة، قطع غيار للمحركات، أجهزة اتصال، وثلاث حقائب طبية كاملة. وفي الزاوية الخلفية وجدوا صندوقاً معدنياً مقفلاً. كريم كسر القفل بقضيب حديدي. داخله كانت أجهزة الإيقاظ: عشرات الوحدات الصغيرة المستطيلة، كل واحدة قادرة على إعادة تشغيل دورة التجميد أو إنهائها.

ليلى حملت واحدة منها في يدها.

ـ بهذه... كان يمكنه أن يبيع حياة الناس أو يمحوها.

كريم أخذ الجهاز منها ووضعه بهدوء داخل الصندوق وأغلقه.

ـ الآن أصبحت لنا. لن تُباع لأحد.

نزلا إلى قاعة التخزين الكبرى. المكان بدا أوسع مما كان، وأصمت. التوابيت المتبقية ـ أقل من ثلاثين ـ كانت مبعثرة بفعل انزلاق الأرضية السابق. بعضها مائل، وبعضها مفتوح جزئياً. تفقداها واحداً واحداً. كلها كانت لا تزال في حالة التجميد العميق. لم يستيقظ أحد غيرهما.

ليلى توقفت أمام تابوت فتاة صغيرة ربما لم تتجاوز السابعة عشرة.

ـ هل نوقظهم الآن؟

كريم نظر إلى الصفوف الفارغة التي كانت ممتلئة قبل يومين.

ـ ليس الآن. السفينة غير مستقرة بعد، ونحن لم نعرف بعد كيف نسيطر عليها تماماً. إذا أيقظناهم ونحن غير جاهزين... قد نموت جميعاً. ننتظر حتى نتأكد أن المحركات والأنظمة تحت سيطرتنا.

عادت إلى غرفة القيادة بعد ساعات من الاستكشاف. جلسا على الأرض وسط علب الطعام المفتوحة وقطع الغيار التي أحضراها معهما. كريم فتح لوحة التحكم الرئيسية وبدأ يتنقل بين القوائم. بعد قليل رفع رأسه:

ـ المحركات النووية في حالة جيدة نسبياً. الوقود يكفي لخمس سنوات من الإبحار المتواصل إذا لم نستخدم الدفع الكامل إلا عند الضرورة. نظام إعادة تدوير الهواء والماء يعمل بكفاءة ثمانية وتسعين بالمئة. السفينة... تستطيع أن تكون بيتاً.

ليلى نظرت حوله: الشاشات، المقاعد، النوافذ التي تطل على السواد اللامتناهي.

ـ بيت متحرك في الفراغ.

ـ نعم.

صمتا قليلاً. ثم قالت ليلى بصوت أكثر هدوءاً من أي وقت مضى منذ استيقاظهما:

ـ إذن لدينا طعام، وملابس، ووقود، وسفينة. ولم يعد هناك من يأمرنا.

كريم أومأ.

ـ وللمرة الأولى... نستطيع أن نقرر ماذا نفعل بهذه الأشياء كلها.

خارج النوافذ كانت المجرة تمتد بلا نهاية ظاهرة. داخل السفينة كان هناك مخزون يكفي للبقاء... ومساحتان فارغتان بما يكفي لتبدأ حياة جديدة، مهما كانت غريبة ومهزوزة في أيامها الأولى.

**الفصل السادس عشر

الخرائط**

جلس كريم أمام لوحة التحكم الرئيسية لساعات طويلة. ليلى بجانبه، تتابع الشاشات وهي تشرب من كوب صغير شيئاً ساخناً عثرا عليه في مخزن الطعام. الكمبيوتر كان يعمل بكفاءة مدهشة رغم عمر السفينة. بنك المعلومات مفتوح أمامهما بكل طبقاته: خرائط نجمية، مسارات تجارية قديمة، تقارير عن المستعمرات، وملفات عن الكواكب المحظورة.

الأرض ظهرت أولاً.

نقطة زرقاء صغيرة محاطة بدوائر حمراء متداخلة. عندما ضغط كريم على الملف، ظهرت عبارة واضحة باللون القرمزي:

«منطقة محظورة على جميع المنفيين المحكوم عليهم بالنفي الأبدي. أي اقتراب يُفعّل أنظمة التتبع الآلي ويُعتبر محاولة هروب تستوجب الإعدام الفوري».

ليلى أصدرت صوتاً خافتاً يشبه الضحكة المرة.

ـ حتى لو أردنا العودة... لن نستقبل كبشر. سنُستقبل كأهداف.

كريم أغلق الملف دون تعليق وانتقل إلى الكواكب القريبة. «آتو» كان ما يزال خلفهم، ملفه مليء بتحذيرات عن السكان الأصليين والظروف المناخية المتطرفة. كواكب أخرى ظهرت واحداً بعد الآخر:

مستعمرة «رأس الثور»: محطة تجارية، لكنها مرتبطة مباشرة بسلطة الأرض. أي سفينة غير مسجلة تُفتش فوراً.

كوكب «غيلان»: غلاف جوي سام، لا حياة معروفة، درجات حرارة تتجاوز قدرة البدلات العادية.

نظام «النسر الصغير»: ثلاثة كواكب صخرية، اثنان منها تحت سيطرة شركات تعدين خاصة تستخدم المنفيين كعمالة رخيصة... إذا وصلوا أصلاً.

بعد ساعتين من التصفح، كان الواقع واضحاً. معظم الأماكن إما محظورة أو مميتة أو خاضعة لنفس النظام الذي نفاهما.

ليلى سحبت ركبتيها إلى صدرها على الكرسي.

ـ إذن لا يوجد مكان نذهب إليه؟

كريم لم يجب فوراً. كان يتنقل بين الطبقات الأعمق في بنك المعلومات. أخيراً توقف عند قسم قديم بعنوان «المسارات غير الرسمية – أرشيف تجاري سابق». خرائط باهتة لمسارات كانت تستخدمها سفن التهريب والتجار المستقلون قبل عقود. بعضها يؤدي إلى مناطق نائية في الذراع الأوريوني، حيث تكون الكثافة النجمية أقل، والرقابة شبه معدومة.

ـ هناك طرق ـ قال ببطء. ـ ليست إلى كوكب معين... بل عبر المجرة نفسها. مسارات طويلة، بطيئة، لكن مفتوحة. سفن قديمة مثل سفينتنا استخدمتها من قبل.

ليلى اقتربت من الشاشة.

ـ وإلى أين تنتهي؟

ـ بعضها لا ينتهي. بعضها يصل إلى أنظمة نجمية بعيدة جداً بحيث أن الأرض تصبح مجرد حكاية قديمة. وإذا حافظنا على الوقود وأعدنا تدوير كل شيء... نستطيع أن نبقى متحركين سنوات.

صمتت قليلاً، ثم قالت:

ـ بيت بلا عنوان ثابت.

ـ أو وطن يختار اتجاهه كل يوم.

نظر أحدهما إلى الآخر. الفكرة كانت مرعبة ومذهلة في الوقت نفسه. لا مستعمرة جديدة يبنيانها، لا أرض يسكنانها، فقط سفينة قديمة ومحركات نووية وخرائط لنجوم بعيدة.

كريم فتح ملفاً جديداً وبدأ يحفظ الإحداثيات التي تبدو أكثر أماناً. ليلى ساعدته في تصنيف المسارات حسب كمية الوقود المطلوبة ووجود محطات تزويد محتملة (حتى لو كانت مهجورة).

بعد ساعات، كانت أمامهما قائمة أولية بثلاثة مسارات محتملة. كلها تؤدي بعيداً عن الأرض، بعيداً عن آتو، بعيداً عن كل ما عرفاه.

ليلى لمست الشاشة بطرف إصبعها، حيث كانت نقطة صغيرة تمثل موقعهما الحالي.

ـ إذن نبدأ من هنا.

كريم أومأ.

ـ من هنا.

خارج النوافذ كان السواد ممتداً بلا حدود ظاهرة. داخل غرفة القيادة، لأول مرة منذ استيقاظهما، بدا أن للمستقبل شكلاً ما... حتى لو كان هذا الشكل مجرد خطوط مضيئة على شاشة قديمة، تتجه نحو المجهول.

**الفصل السابع عشر

الوطن المتحرك**

مرّ أسبوع كامل قبل أن يشعرا أن السفينة بدأت تستجيب لهما حقاً.

تعلّما معاً. كريم أمضى ساعات طويلة أمام لوحات التحكم، يقرأ الأدلة الإلكترونية القديمة المحفوظة في النظام، ويجرب الأوامر واحداً بعد الآخر. ليلى تولت أنظمة الحياة: إعادة تدوير الهواء، مراقبة خزانات المياه، وتنظيم المخزون الغذائي بحيث يكفي أطول مدة ممكنة. في اليوم الرابع نجحا في تشغيل نظام الملاحة اليدوي دون الاعتماد على المسارات الآلية المبرمجة مسبقاً.

في اليوم السادس جلسا في غرفة القيادة وأطفآ معظم الأضواء. بقيت الشاشات فقط، وخريطة النجوم مضيئة أمامهما كسقف مقلوب.

ـ هل كنت تعرف أنك ستنتهي هنا؟ ـ سألت ليلى فجأة، صوتها هادئ في العتمة.

كريم هز رأسه.

ـ كنت أظن أنني سأُسجن في مكان ما على الأرض. زنزانة صغيرة، ورق ممنوع، وسنوات طويلة من الصمت. التجميد... لم يكن في حساباتي.

ـ وأنا كنت أظن أنني سأرسم حتى أموت. في غرفة ضيقة، نعم، لكنني أرسم. لم أتخيل أن آخر لوحة لي ستكون دليلاً في محكمة.

ضحكا معاً ضحكة قصيرة خافتة، كأنها تخرج من مكان بعيد داخل كل منهما. ثم عاد الصمت، لكنه لم يعد ثقيلاً كما كان في الأيام الأولى.

في الأيام التالية بدآ يقتسمان الروتين دون أن يتفقا صراحة. كريم يصحو أولاً، يراجع المحركات والقراءات الحرارية. ليلى تجهز شيئاً ساخناً من المخزون، ثم تتحقق من أنظمة الهواء. بعد الظهر يجلسان معاً أمام الخرائط، يعدلون المسار قليلاً كلما اكتشفوا خياراً أفضل. في المساء يطفئان الأضواء الزائدة ويجلسان في العتمة يتحدثان.

تحدثا عن أشياء صغيرة في البداية: طعم القهوة المركزة الرديء، صوت المحركات عندما تتغير سرعتها، كيف يبدو الشعر طويلاً بعد أسابيع دون مقص حقيقي. ثم جاءت الأشياء الأكبر تدريجياً.

كريم روى لها عن الأمسية السرية الأخيرة، كيف كان صوت القصائد يرتجف في القبو المظلم، وكيف صفق الناس بصمت خوفاً من أن يُسمع التصفيق في الخارج. ليلى روت له عن اللوحة التي سببت كل شيء: كيف جلست أمامها ثلاثة أيام متواصلة، وكيف شعرت وهي ترسم الجسد الشفاف أنه يتنفس معها.

في ليلة من الليالي، بينما كانت الخريطة النجمية تضيء وجهيهما بضوء أزرق خافت، قالت ليلى:

ـ هل ما زلت تكتب؟

ـ في رأسي... نعم. على الشاشة لم أجرب بعد.

ـ جرب.

فتح كريم ملفاً فارغاً وكتب سطراً واحداً، ثم آخر. ليلى لم تنظر إلى الكلمات. اكتفت بأن تجلس بجانبه وتشربه دفء الحضور الإنساني الوحيد المتبقي لهما في هذه السفينة كلها.

بعد أيام لاحظا أن المسافة بينهما في غرفة القيادة أصبحت أقل. يجلسان أقرب. يمد أحدهما يداً ليعدل شيئاً على اللوحة فيلمس ذراع الآخر دون أن يعتذر. في الصباح يجدان نفسهما قد ناما في مقعدين متجاورين، الرؤوس مائلة نحو بعضهما دون أن يقصدا.

لم يتحدثا عن الحب. لم يكن الوقت مناسباً لكلمات كبيرة. لكن شيئاً هادئاً كان ينمو بينهما، مثل نبات يطلع في شق صخرة: بطيء، عنيد، ولا يحتاج إلى إذن من أحد.

في نهاية الأسبوع الثاني، بينما كانت السفينة تقطع منطقة فارغة نسبياً من النجوم، وقف كريم أمام النافذة الكبيرة وقال دون أن يلتفت:

ـ هذا المكان... بدأ يشعرني أنه بيت.

ليلى جاءت ووقفت بجانبه. كتفهما تلامسا.

ـ بيت يتحرك ـ ردت بهدوء. ـ وهذا أجمل ما فيه ربما.

خارج النافذة كان السواد ممتداً كما هو منذ البداية. داخلهما كان شيء آخر قد بدأ يتشكل: روتين، وصوت مشترك، وصمت لم يعد مخيفاً. وطن صغير جداً، مصنوع من معدن قديم ومحركات نووية وخوفين تعلما أن يناما بجانب بعضهما.

**الفصل الثامن عشر

قرار**

كانت الليلة هادئة بشكل استثنائي.

السفينة تمخر منطقة نجمية قليلة الكثافة، والمحركات تعمل على أدنى طاقتها لتوفير الوقود. معظم الشاشات مطفأة إلا الخريطة الرئيسية التي تنثر ضوءها الأزرق الخافت على الجدران. كريم وليلى جلسا على الأرض هذه المرة، ظهورهما إلى قاعدة الكرسي الرئيسي، بطانية خفيفة فوق ساقيهما بعد أن وجدوا أن المقاعد المعدنية تزداد برداً مع مرور الأيام.

مرّ وقت طويل قبل أن يتكلم أحدهما.

ـ هل ما زلت تفكر في الهبوط على كوكب ما؟ ـ سألت ليلى فجأة.

كريم هز رأسه ببطء.

ـ فكرت. ثم رأيت الملفات مرة أخرى. كل مكان مناسب تقريباً إما خاضع لنفس النظام أو يحتاج إلى موارد لا نملكها أو بشر أكثر مما نحن. وإذا هبطنا... نصبح هدفاً من جديد. سفينة مسروقة، منفيان هاربان. الأفضل أن نبقى حيث لا يصلون إلينا بسهولة.

ليلى سحبت البطانية أعلى قليلاً.

ـ إذن نبقى هنا؟ على السفينة؟

ـ نجعلها... وطناً. ليس محطة انتظار حتى نجد مكاناً أفضل. بل المكان نفسه.

التفتت إليه في الضوء الأزرق. وجهها كان أكثر هدوءاً مما رأته منذ استيقاظها، والشعر الأسود الطويل مرسلاً على كتفيها دون عناية.

ـ وطن بلا أرض.

ـ وطن يختار اتجاهه كل صباح ـ أكمل كريم. ـ إذا ملّ أحدنا من نجمة، نغير المسار. إذا احتجنا إلى شيء، نبحث عن محطة مهجورة أو حطام قديم. نعيش بما يكفي، ونتحرك بما يكفي. لا أحد يأمرنا، ولا أحد يرمي بنا من فتحة في الأرضية.

صمتت ليلى طويلاً. ثم مدّت يدها وأمسكت يده. أصابعها كانت باردة في البداية، ثم دفئت بين أصابعه.

ـ كنت أخاف من الفراغ ـ قالت. ـ الآن أخاف منه أقل.

كريم نظر إلى الخريطة. نقاط الضوء اللامتناهية بدت فجأة أقل عداءً.

ـ في القصائد القديمة كانوا يقولون إن الوطن هو المكان الذي تموت فيه مرتاحاً. أظن أننا نستطيع أن نعدل الجملة: الوطن هو المكان الذي تعيش فيه حراً... حتى لو كان يتحرك بسرعة آلاف الكيلومترات في الساعة.

ليلى ابتسمت ابتسامة صغيرة حقيقية، أولى ابتساماتها منذ زمن طويل.

ـ إذن نبقى؟

ـ نبقى.

ـ ونسميها شيئاً؟ السفينة... أعني.

كريم فكر لحظة، ثم قال:

ـ كانت تُدعى «النسر الأسود». النسور مفترسة. نحن لسنا كذلك. ربما... نتركها بلا اسم جديد. أو نسميها ببساطة «البيت».

ليلى أسندت رأسها إلى كتفه. صوتها جاء همساً قريباً من أذنه:

ـ البيت يكفي.

جلسا كذلك وقتاً طويلاً. الخريطة تضيء وجهيهما، والمحركات تهمس همسها البعيد المنتظم، والسواد خارج النوافذ يبدو للمرة الأولى أقل فراغاً وأكثر احتمالاً.

بعد حين رفع كريم رأسه قليلاً وقال، كأنه يكمل جملة قديمة بدأت منذ أن فتح عينه داخل التابوت:

ـ لن نبحث عن كوكب لنزرع فيه علمنا أو نبني عليه جدراناً. سنبقى هنا... ونذهب إلى حيث نريد.

ليلى أغلقت عينيها، صوتها دافئ وواضح في العتمة:

ـ بل كوننا كله... حيث الحب والسعادة والسلام.

السفينة واصلت طريقها في الصمت الكوني. خلفها بقيت الأرض بعيدة ومحظورة، وكوكب آتو بجوعه وذكرياته السوداء. أمامها امتدت المجرة بلا نهاية معروفة.

داخل غرفة القيادة كان هناك اثنان فقط، يد واحدة تمسك يداً أخرى، وقرار واحد هادئ ونهائي: أن يظلا معاً، وأن يظلا متحركين، وأن يجعلا من المعدن القديم والظلام اللامتناهي أول وطن حقيقي عرفاه في حياتهما.

وانتهت الحكاية هناك...

أو ربما بدأت.

فصل ختامي

بعد أن قالا كلمتيهما الأخيرتين، ظلّ الصمت يلفّ غرفة القيادة دقائق طويلة. الخريطة النجمية تسكب ضوءها الأزرق الخافت على وجهيهما، والمحركات تهمس في الخلفية كأنها تتنفس معهما.

ليلى رفعت رأسها عن كتف كريم. عيناها كانتا لامعتين في العتمة، وفيهما شيء لم يعد خوفاً ولا إرهاقاً. شيء جائع ومتلهف. مدّت يدها إلى خده، لمست الوشم الأخضر بطرف إصبعها، ثم انحنت وقبلته.

القبلة الأولى كانت بطيئة، كأنها تتذوق طعم الحرية على شفتيه. ثم اشتدت. كريم ردّها بلهفة مكبوتة منذ أسابيع، يده تنزلق إلى مؤخرة رأسها وتشبك أصابعه في شعرها الأسود الطويل. تنفسا في فم بعضهما، والجسدَان اقتربا حتى لم يعد بينهما سوى القماش الرقيق.

ليلى سحبت القميص الرمادي عن جسدها ورمت به جانباً. نهداها ارتفعا مع أنفاسها السريعة، الحلمتان متوترتان من البرد والإثارة. كريم خلع ما تبقى عليه من ملابس في حركة واحدة شبه يائسة. الوشم الأخضر امتدّ الآن واضحاً على صدره العاري، نزولاً إلى بطنه، ثم اختفى تحت السرة حيث كان قضيبه منتصباً وقاسياً، ينبض بانتظارها.

جلسَت فوقه، ساقاها على جانبي وركيه. أمسكت قضيبه بيدها الصغيرة ووجهته نحو فتحة فرجها المبتلة. انزلقت عليه ببطء أولاً، ثم دفعة واحدة حتى غاب بالكامل داخلها. شهقت بصوت عالٍ، رأسها ينحني إلى الخلف، شعرها الأسود يتساقط على ظهرها العاري.

كريم أمسك بخصرها بكلتا يديه وبدأ يرفعها ثم يهوي بها عليه. الإيقاع تسارع بسرعة. صوت ارتطام الجسدين الرطب ملأ الغرفة مع أنينها المتقطع. ليلى كانت تتحرك فوقه بجنون، نهداها يهتزان أمام وجهه، فمدّ رأسه والتقط إحدى الحلمتين بين شفتيه ورضعها بقوة وهو يندفع إلى داخلها أعمق فأعمق.

ـ أسرع... أعمق ـ تمتمت بصوت مبحوح، أظافرها تغرز في كتفيه.

قلبَها فجأة، بقي داخلها، ووضعها على ظهرها فوق الأرضية المعدنية الباردة. رفع ساقيها ووضعها على كتفيه، ثم نكحها بقوة وحشية متلهفة، كل دفعة تصدر صوتاً رطباً عالياً. ليلى صرخت، ظهرها يتقوس، يدها تبحث عن أي شيء تمسك به فلم تجد سوى ذراعه.

وصل الاثنان معاً تقريباً. كريم انفجر داخلها بدفقات ساخنة متتالية، جسده يرتعش فوقها، بينما كانت هي تتشنج حوله، فرجها ينقبض بقوة على قضيبه كأنه يريد أن يبتلعه كله. استمرا في الحركة بضع ثوانٍ إضافية، بطيئة ومبللة، حتى فرغ كل ما فيهما.

سقط كريم بجانبها على الأرضية الباردة. كلاهما عارٍ تماماً، حافٍ، صدره يرتفع ويهبط بسرعة، وجسدها يلمع بالعرق تحت الضوء الأزرق. ساقاها ما زالتا مفتوحتين قليلاً، سائلهما المختلط يسيل ببطء على فخذها الداخلي.

مدّ يده وأمسك يدها. أصابعهما تشابكت دون كلام.

ليلى أدارت رأسها نحوه، لاهثة، ابتسامة متعبة وراضية على شفتيها المتورمتين من القبل.

ـ هذا... أيضاً جزء من البيت ـ همست.

كريم ضحك ضحكة قصيرة لاهثة، ثم جذبها إليه حتى صار رأسها على صدره، الوشم الأخضر تحت خدها مباشرة.

رقدا هكذا، عاريين، حافيين، متجاورين على أرضية غرفة القيادة، لاهثين، مستمتعين، والسفينه تواصل طريقها في السواد اللامتناهي، حاملةً أول وطن حقيقي عرفاه... وجسدين لم يعودا خائفين من العراء.